انني اجلس وراء مكتب ازرق كالح فخم في فندق نظيف بحي المرجة من مدينة دمشق اكتب واكتب واكتب ، بدون انقطاع او ملل ، اريد ان انتهي بسرعة ، اريد ان اهرب الى عالم جديد ، دنيا جديدة ، فانا مرهق وحزين ومثقل القلب، الافكار التي تدور برأسي تؤلمني لم اعد اقوى حملها ، يجب ان اتخلص منها ، فقد ارتاح ، وتعود ابتسامة الى وجهي، والذي يظهر انني لم ابتسم منذ أمد طويل . هكذا تقول لي مرآتي والتجاعيد قاسية على جبيني اذن فلا بد ان ارتاح ، ان اكتب شيئا وان اقوله للناس فلربما اشترك بعضهم في تحمل عبء سبع سنوات سبع عشتها وما ازال اعيشها وسط دوامة قاسية عاتية لا ترحم ، تجرني وتبصقني ، وتعود فتأكلني لتجرني وتبصقني دون ان استطيع السيطرة عليها وتمزيق تياراتها اللئيمة الحاقدة .

اليوم هو الثالث عشر من شهر كانون الثاني من عام ١٩٦٤ . وملوك العرب ورؤساؤهم مجتمعون في القاهرة لبحث العدوان الصهيوني في تحويل مجرى نهر الاردن . ما اجمل واروع هذا اللقاء بعد خصومة ضارية ونباح على اجهزة الاثير تستمر اكثر من سبعة اعوام بين اخذ ورد ، وهزال جد سخرت منه الدنيا وتشكت منه رفات الجدود !!

والحقيقة ان موضوع تحويل مجرى نهر الاردن موضوع خطير وهام . لقد اجمعت كل المصادر العربية على تأييد هذه الخطة . واخطر من الخطر تجري محاولة لبحث قضية فلسطين من جذورها . قضية فلسطين كانت وستبقى حتى تحل ، قضية الامة العربية ، القضية التي ارتبط بها شرف الامة العربية كما اجمع كل الزعماء والساسة والخطباء في كل مناسبة ، وكل مناقشة وبعد كل انقلاب منذ ستة عشر عاما ، اي منذ اليوم الاول للمأتم الكبير الذي سار فيه حكام العرب وملوكهم ورؤساؤهم مطأطئي الرؤوس حزنا والما وربما خجلا لمصرع الحبيبة فلسطين ، بؤبؤ عين العرب وفلذة كبدهم .

أجل انه اليوم الثالث عشر من شهر كانون الثاني من عام ١٩٦٤ والزعماء والرؤساء العرب يتبادلون القبل والتحيات والانخاب في القاهرة . وتذر وكالات الانباء واجهزة الاعلام اخبار هذه القبل والتحيات والانخاب . ويتفاءل العرب — بعض العرب ، وترتفع المعنويات ، ترتفع الاصوات بالصلوات ، وتنتابني الذكريات . ويحملني الخيال الى الماضي ، وفجأة أجد نفسي في الشام . في دمشق الشام اجلس وراء مكتبي الازرق أتحدث مع نفسي في « هلوسة » حديث المحموم المريض ، فأسألها وبصدق وكأنني اغيق من سبات طويل طويل : أين أنا ؟ وماذا أفعل هنا ؟ ماذا أفعل هنا في هذا الفندق المتواضع النظيف في ساحة المرجة من مدينة دمشق الشام ؟؟ عام ١٩٦٤ ! أحس بقساوة تقع على عيني فاغمضهما على ذكريات مؤلمة ، ليست بعيدة جدا تعود الى ما النكبة في فلسطين ، لتصحو على اصداء نكسة الاردن حملتني بعيدا بعيدا عن كل شيء . ومرات تقاذفني منذ سنوات سبع في كل مكان ، والى كل مكان .

بالقدر الذي تطبع فيه الرومانتيكية هذه المقدمة لمذكرات سياسية ، بالقدر الذي يؤكد الكاتب به هكذا احس . وكان لا بد ان يكتبها اي المقدمة بالاسلوب الذي يعبر به عن صدق احاسيسه .